لعل أهم مراكز الحركة العلمية في المغرب وهو تعبير ثقافي أكثر من كونه جغرافي ، لأن المغرب كيان ثقافي أسهم تكوينه ادريس الأول والثاني وعلى خطاهم عبدالله بن ياسين ويوسف بن تاشفين والمهدي بن تومرت وعبدالمؤمن وابن خلدون وإبن بطوطة وأبو الحسن الشاذلي ، والحسن الوزان وسحنون بن عبدالسلام التنوخي الذي رتب المدونة التي جمعها أسد بن فرات وأبومدين شعيب الأنصاري – وأبو الوليد محمد بن رشد ومن قبلهم على بن حزرهم الذي درس مباشرة على يد الإمام الغزالي والشيخ أحمد ماجد التجاني الخ .

ويمكن القول بأن الحياة الفكرية قامت أساسا على المذهب المالكي وشروحه مابين مدونة سحنون وبداية المجتهد لأبن رشد ورسالة ابن زيد االقيرواني وهذه الكينونة الثقافية كانت عابرة للحواجز العرقية والقبلية ومن الصعب محاكمتها أو معايرتها بمعايير الدولة القومية الوطنية ، كما أن القبائل المغربية والمكونات المغربية من أمازيق وطوارق ومجموعة المساونة والأشراف والشناقيط كانت تتحرك في إطار جغرافيا ثقافية / اجتماعية وهذا هو الذي جعل في المغرب وحدة فكرية روحية ثقافية وجعله مؤهلا للمشروعية السياسية المركزية كما عبر عنها الإدارسة والمرابطين والموحدين مما أدي إلى تكوين شخصية عربية / إسلامية متسامحة عبرت عن قيم العيش المشترك وازدهرت في مركزيتها ثقافات الأقليات الإسلامية وغير الإسلامية .

هذا الكيان الروحي / الثقافي أثر يعمق على الكيان الإفريقي السودان ، ومع إن السودان العربي لم يخضع لأي خلافة إسلامية شرقية باستثناء تواصله المغربي ، إلا أن حركة التدوين والتأصيل والإنتماء الإسلامي ، كانت أشد في السودان الغربي من السودان الشرقي والنيلي ، رغم أن السودان الشرقي لايفصله عن المجاز ومراكز الإشعاع الثقافي الإسلامي إلا البحر الأحمر ، الذي هو واصل وليس فاصل – ولكن الغرب الجغرافي ليس هو الحاسم في التكوين الثقافي وإلا فإننا نجد نسبة الإسلام في السنغال ومالي والنيجر وغيرها تفوق ال 90% بينما لا تتجاوز في مناطق كاثيوبيا وتنزانيا واريتريا وكينيا حاجز الخمسين في المائة باستثناء الصومال ، ولعل ذلك التمايز والتعامل يعود لأسباب :

منها أن الجوار الحضاري المغربي للسودان الغربي كان اشد مضاء وفاعلية من الجوار الحجازي والمدد المشرقي بخلافاته الأموية وعباسية وملوكية وعثمانية .

ثانيا : أن التواصل بين ضفتي البحر الأحمر ومكوناته كان سياسيا وتجاريا بينما كان الفاعل الثقافي والحضاري أقل تأثيرا ، نسبة لأن الحضور كان في غالبه سياسيا أو تجاريا ولذا كان ذو طبيعة مؤقتة فما أن تنتهي العوامل السياسية أو الأغراض التجارية حتى يعود اللاجئون

السياسيون أو التجار وتبقى فقط بعض آثارهم. بينما التواصل. المغربي. السوداني. كان تواصلا حضاريا أدي إلى إنتشار الكتاب العربي في بلاد السودان وارتباط الأهالي بتراث الحرف العربي بل واتخذوا منه رمزا لكتابة لغاتهم ، حتى بلغ عدد اللغات الإفريقية التي كتبت بالحرف العربي ما يناهز الثلاثين / الفلاني ، ماديتقا ، سوننكي ، ولوفي ، نمي بينما في شرق إفريقيا برزت فقط اللغة السواحيلية والصومالية.

كما سبق السودان الغربي إلى قيام ممالك إسلامية كممالك غانلو مالي وسنغاي وصوكتو وارتبطت مثلا نشأة تمبكتو أهم عاصمة للثقافة الإسلامية في افريقيا في القرن الثالث عشر الميلادي بالطوارق واكتمل تأسيسها في عهد المرابطين وازدهرت في عهد ملوك صنغاي ، وبرز فيها جامع السونكري الذي أقيم على غرار القرويين والجامع الأزهر – وقد قضى اكبر عالم من السودان الغربي وهو أحمد بابا 14 عاما في مراكش عاصمة السعديين ، انصرف فيها للتدريس ابتداء من عام 1591 – ومن مؤلفاته التي بلغت زهاء خمسين مؤلفا كتاب فريد في بابه وهو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان أو معراج العصود إلى حكم مجلوب السودان ردا على حكم استرقاق ولشعوب السودانية المسلمة تأسيسا على المذهب المالكي .

وما من دولة من دول السودان الغربي إلا يرجع الفضل في تأسيسها إلى رجل من المغرب ومن أهم العلماء الذين كتبوا في السياسة الشرعية محمد بن عبدالكريم المغيلي وكذلك من علماء المغرب الحاج أحمد بن عمر ابن محمد أخيت ومحمد بن أحمد وغيرهم وفي دولة الفور في غرب السودان النيلي يرجع أساسها غلى أحمد المعقور وسيليمان سولونج وهما من جذور مغربية ، ولمدة ثلاثة قرون ، اشعث الحركة العلمية في مدينة تنبكتو ، وبفضل العلماء القادمين من المغرب العربي ، اصبحت أكبر مركز اشعاع ثقافي في إفريقيا ماوراء الصحراء ، وكان الكتاب فيها بسعر الذهب ولا توجد مدينة إفريقية في السودان الشرقي أو النيلي فيها من المخطوطات كتنبكتو التي عكست النشاط الروحي والفكر للمدد المغربي .

ولعل الدور الذي قام به العلماء المغاربة في السودان لايقل عن دور البعوث الاستكشافية المسيحية والاستعمارية ولكن ضغوط الجيوش الغربية بمدارسها ومدافعها ولغاتها غطى جزئيا على جهود المدد المغربي– وما تزال آثار المغرب من جاليات قديمة اختلطت بالاهالي حاضرة على امتداد السودان ، ويكفي أنه في جمهورية السودان للمغاربة ما يشبه الإقليم المسمى بشرق النيل حيث قامت فيه مدن كاملة للمغاربة والشناقيط والاشراف .

ومما قوى حركة المدد الروحي والفكري المغربي طريق الحج في المغرب إلى الحجاز ، وفي فترة الصليبيين في القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تمّ قطع طريق الحج عبر مصر ، فتحركت القوافل عبر الصحراء من مراكش وطرابلس وتلمسان إلى تنبكتو ثم كانوا

في نيجيريا ثم أبشي في تشاد إلى الفاشر أو صحراء عيذاب إلى البحر الأحمر عبر مينائي سواكن وعيذاب إلى الحجار وقد وصف الرحالة المشهور ابن بطوطة ذلك .

ولم تك قوافل الحجاج مجرد تجمع حجيج وإنما كانت مدن متحركة ، فيها الأمراء وقواد والجند والعلماء والتجار والنساخ والوعاظ والرعاة والعمال والمغامرون وطلاب الرحلة ، وكانت تربط تجارة المحيط الأطلسي بالبحر الاحمر ، وفي الطريق يتخلف الآلاف وتضم الآلاف ولمدة شهور يحدث فيها تلاقح فكري وثقافي ، وعن طريق هذا التلاقح دخلت الطريقة الشاذلية ، لأن ابوالحسن الشاذلي كان يؤدي الحج عبر هذا الطريق ومات في صحراء حميثراء ، على بعد بضعة عشر ميلا من حلايب المنطقة المتنازع عليها بين مصر والسودان ومايزال مقامه شاخصا هناك. وبعد ابي الحسن الشاذلي وبعد نيف خمسمائة عام جاء رجل آخر وهو أحمد بن ادريسي الفاسي 1750- 838 (1) وهو من إشراف فاس وكون مدرسة فكرية روحية أثرت يعمق في ليبيا والسودان وتشاد وغيرها عن طريق تلاميذه وكان اشهرهم محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية في السودان والسيد محمد على السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية التي أصبحت حركة جهادية ومن أبرز رجالها عمر المختار وعشرات الحركات العلميةة المنتشرة والتي تحمل شعارات وافكار وأوراد ابن ادريس ، حيث لم يقل تأثير ابن ادريس عن تأثير حسن البنا في القرن العشرين وإن اختلف تأثير ابن ادريس لأنه امتدت به الأيام إلى 88 عاما ، وأصبح له مئات الرسائل بينما كان حياة البنا قصيرة 42 عاما ، وقد مات ابن ادريس في صابيا باليمن يعد غربة أطول من غربة ابن بطوطة لأنه خرج من فاس عام 1797 ولم يعد لها أبدا إلا ان مات في صابيا بعد أربعين عاما من الجهاد الروحي والفكري .

وعلى خطي السيد / أحمد بن ادريس جاءت خطى تلامذه السيد / أحمد التجاني الذي انتشر تلاميذه ومريديه في كل السودان وأصبحت التجانية تمثل اكبر حركة روحية فكرية على امتداد السودان وانجبت مجاهدين كالسيد عمر الفوتي الذي قاتل الفرنسيين واحمد بمبا وغيرهم وغيرهم من تلامذة السجادة التجانية .

ولعل المغاربة هم أساس الوحدة الروحية القائمة على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والنفث الصوفي وساهم العلماء المغاربة في صياغة وتحرير العقل الإفريقي من رجس الأرواحية الإحيائية ، ومن جبروت كهنوت التعسفية والتوهمات الطوطمية التي تجذرت في الوجدان الإفريقي ومن ثقافة الخوف من الطبيعة ووطأت الأرواح وغضب الإسلاف والشعوذة والدجل والسحر وسلطان الخرافة ، مما أدى إلى تجفيف أو تقليل سطوة الجريمة والسرقة والسلب وخطف الإناث والزنا وسفك الدماء والسكر وغيرها من الموبقات وظاهر هذا المدد

الشعبي المجتمعي كذلك مدد الدولة على عهد المرابطين والموحدين ، ويمتاز عصر المرابطين من الناحية الدينية بظهور أقطاب التصوف الأولين بالمغرب وأساتذته الطرقيين والذين نجحوا في توحيد المغرب الثقافي ككيان جغرافي دخلت فيه أقاليم الجزائر وبلاد الاندلس وتونس والصحراء وموريتانيا والسنغال ، وكان إيقاع المرابطين أشد في إفريقيا من الموحدين لانشغال الآخيرين بمجابهة الصليبيين في الأندلس ، وحتى الدولة الفاطمية التي خرجت من تونس وملكت مصر 969م والشام كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في النوبة السودانية وقيام اول مملكة إسلامية في جمهورية السودان باسم دولة الكنوز إشارة لمؤسسها كنز الدولة وإن برزت الدولة في عهد الأيوبيين ولكن نواتها كانت في أيام الفاطميين ، كما أن الأزهر الشريف أكبر المنابر الإسلامية في العالم هو ثمرة من ثمرات الفاطميين .

غرس العلماء المغاربة المكون المفقود في الحركات الإسلامية وهو الحكمة والعقلانية ولم لا ؟ وقد اهتم المرابطون والموحدون بالعلماء بل إن "الموحدون" استقدموا أبوالوليد محمد بن رشد المولود عام 1126م من الأندلس لإصلاح التعليم بالمغرب والعقل المغربي يرجح الحكمة والعقلانية لذا فلا عجب أن عاد إنتاج المذهبين المالكي والاشعري – والمدد المغربي هو المسئول عن التكوين العقلي لسحنون وابن خلدون وابوالحسن الشاذلي واحمد التجاني واحمد بن ادريس ومدارس العرفان والحكمة .

ومن المحزن ان تحدث قطيعة بين افريقيا السياسية المندمجة في منظمة الإتحاد الإفريقي والمغرب بسبب الصحراء المغربية والخاسر الأكبر في ذلك هما إفريقيا وخصوصا افريقيا التي رضعت من ثدي الحكمة والعقلانية المغربية ولابد أن تتجاوز الارادة المغربية هذا التحدي وتعود المغرب كحاضنة لافريقيا سياسيا واجتماعيا وتأثيرا روحيا وفكريا وما ذلك ببعيد .

من المراجع المهمة :

1. الهادي النويصري ، الموحدون ودورهم في نشر الثقافة الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء رسالة دكتوراه ، جامعة إفريقيا العالمية 2005م .
2. مهدي ساتي ، الإسلام ومظاهر التحول الاجتماعي في إفريقيا جنوب الصحراء وكذلك يوسف فضل حسن ، الكتاب العربي واثره في التواصل الثقافي مع إفريقيا ، دراسات إفريقية ، مجلة بحوث نصف سنوية ، جامعة إفريقيا العالمية .
3. حسن مكي : التواصل العربي الإفريقي على جانبي الصحراء ، دراسات إفريقية عدد 19 يونيو 1998م ، جامعة إفريقيا العالمية .
4. أوراق المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا ، جامعة إفريقيا العالمية ، 2006م .